مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد (24) – العدد (02) (ديسمبر، 2023) -ص 275- 290
ISSN 1111-5149 /E. ISSN 2430-2588

الكتابة الموسوعية عند شهاب الدّين أبي العباس النويري
من خلال كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب)

Encyclopaedic Writing by Shihab al-Din Abu Abbas al-Nuwayri in His Book "The end of the ultimate goal in literary arts"

د. حياة مستاري*، جامعة باتنة 1(الجزائر)، hayat.moustari@univ-batna.dz،
https://orcid.org/0009-0009-2736-4350

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول
2023-11-30	2024-01-14

ملخص

يتناول هذا البحث بالدرا سة والتحليل نموذجا من نماذج الكتابة المو سوعية في العصر المملوكي وهو كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) لشـــهاب الدين أبي العباس النويري (733/677ه) والذي كان من أوائل من اقتحموا هذا المجال وأبدعوا فيه. حيث حللنا عنوان الكتاب وحاولنا اســـتنباط دلالاته وأبعاده وعلاقته الوثيقة بعصره وبيئته، واستعرضنا المضامين الكبرى للكتاب مع بيان الطابع الموسوعي البارز فيه، وبسطنا معالم منهج النويري في تأليفه وتقســـيمه وتبويبه، وبينا في الأخير القيمة الأدبية والتاريخية التي يكتســـبها هذا الكتاب الثمين ومكانته في التراث العربي الإسـلامي من خلال شـهادات المسـتشـرقين وآراء النقاد والدار سين، وختمنا البحث بجملة من النتائج التي توصلنا إليها.

الكلمات المفتاحية: النويري؛ الموسوعة؛ العصر المملوكي؛ الفنون؛ الأدب.

Abstract

This research involves the study and analysis of a model of encyclopedic writing during the Mamluk period, specifically the book "The Conclusion of Arabesque in Literature" by Shihab al Din Abu Abbas al Nuwayri (677-733). He was among the pioneers in this field and excelled in it. In this study, we analyzed the title of the book, attempting to extract its significations and dimensions, as well as its close relationship with the era and the environment. We presented the major content of the book, highlighting its prominent encyclopedic nature. We also discussed Nuwayri's methodology in authoring, structuring, and categorising his work. Finally, we emphasized the literary and historical value of this precious book and its significance in the Arab-Islamic heritage, supported by the testimonies of Orientalists, the opinions of critics and scholars. We concluded the research with several key findings that we have reached.

Keywords: Al- Nuwayri; encyclopaedia; Mamluk period; arts; literature.

* المؤلف المراسل

مقدّمة

عرف العصر المملوكي الذي يمتد من منتصف القرن السابع إلى منتصف القرن العاشر الهجريين نشاطا فكريا وعلميا مشهودا، وأبرز ما ميّزه ميل العلماء والأدباء فيه إلى التأليف الموسوعي الذي شهد قفزة نوعية وازدهارا غير مسبوق، وازدانت المكتبة العربية الإسلامية بأعداد وفيرة من الموسوعات ذات القيمة العلمية والأدبية والتاريخية العالية التي اختصرت كنوز التراث وأضافت عليه ما جادت به قرائح أصحابها من الإبداع في شتى مجالات العلوم والفنون.

وكتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري (677/ 733ه) إحدى أوائل الموسوعات التي ظهرت في هذا العصر، والتي وضعها مؤلفها في ثلاثين مجلدا، وضمّنها ألوانا شتى من المعارف التي تدلّ على غزارة علمه، وسعة اطلاعه، وقسمها تقسيما منهجيا، ورتبها ترتيبا ذكيا وفق خطة واضحة تمكّن القارئ من الاستفادة منها في سهولة ويسر.

وتهدف هذه الورقة البحثية إلى محاولة قراءة الإنتاج الموسوعي الذي كان علامة بارزة من علامات العصر المملوكي من خلال دراسة هذا الكتاب، وتحليل مضامينه، وبيان قيمته العلمية والأدبية والتاريخية، وذلك من خلال الإجابة عن جملة من التساؤلات التي تطرحها إشكالية البحث وهي كالتالي: هل يمكننا عدّ كتاب نهاية الأرب نموذجا للكتابة الموسوعية في العصر المملوكي؟ ما هي المعالم الكبرى لمنهج النويري في الكتابة الموسوعية؟ وهل تعكس مضامين الكتاب العلمية والأدبية والتاريخية فكرة الموسوعية؟ وهل نال هذا الكتاب ما يستحقه من الدراسة والبحث؟

وتطمح هذه الورقة البحثية إلى دراسة وتحليل كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) بصفته مصدرا مهما من مصادر الثقافة العربية والإسلامية في العصر المملوكي، من خلال الوقوف عند المعاني والدلالات التي يحملها عنوان الكتاب وعلاقته بالدرس الموسوعي، والبحث في منهج النويري وطريقته في التأليف، وتحليل المضامين الكبرى للكتاب، والانتهاء بتثمين القيمة العلمية والأدبية والتاريخية للكتاب الذي يصور المشهد الثقافي في العصر المملوكي أصدق تصوير.

أولا_ عنوان الكتاب ودلالاته

العنوان هو العتبة الأولى للوُلوج لمَغزى الكتاب، وهو أول لقاء بين القارئ والنص، ومدخل أساسي لقراءته "فالعنوان للكتاب كالاسم للشيء، به يُعرَفُ وبفضله يُتَدَاوَل، يُشَارُ به إليه، ويدلّ به عليه، ويحمل وسم كاتبه، وهو علامة جُعِلَت له لكي تدلَّ عليه" (الجزار، 1998، صفحة 15). وغالبا ما يتكوَّن من كلمة أو كلمات "تختصر الكتاب بصفحاته ومجلداته، وتعتصر معانيه في تلك الأحرف التي تُرَقَّم على واجهة الكتاب" (زكي، 2007، صفحة 125) ووضع العنوان من أخصّ خصوصيات المؤلّف، ولا يحقّ لأيّ كان أن يمسّهُ بأيّ قدر من التغيير أو التبديل.

وقد اختار النويري لكتابه الموسوعي عنوان (نهاية الأرب في فنون الأدب). وأول ما يسترعي انتباهنا فيه هو بناؤه اللغوي المسجوع. وقد ظهرت العناوين المسجوعة في التراث العربي أواخر القرن الثالث الهجري بشكل قليل بعد ازدهار حركة التدوين، ثم ما لبثت أن انتشرت حتى أصبحت سمة عامة صاحبت كتب التراث حتى مطلع العصر الحديث، وكان الكُتَّابُ والأدباء على مرِّ هذه العصور يميلون إلى

هذا النوع من العناوين المسجوعة لما يجدون فيها من الجاذبية التي يكتسبها من الجرس الموسيقي الرنَّان الذي يجعله مميَّزا.

فإذا انتقلنا إلى مكونات العنوان فإننا نجده مكونا من عبارتين، العبارة الأولى هي (نهاية الأرب)، وتركيبها اللغوي تجعلنا نشعر أن صاحبها يريد أن يبيِّن لنا قيمة كتابه العالية ونفاسة محتواه، وأنه قد بذل في جمع مادته وترتيبها جهدا كبيرا، وضمنه كل ما يمكن أن تطلبه النفس، ويحتاجه العقل من العلم النافع، والأدب الماتع. فالأرب في اللغة هو البغية والأمنية، يقال: بلغ أَرَبَهُ، ونال أَرَبَهُ أي حقق أمنيته. وأَرِبَ الرجل إذا احتاج إلى الشيء وطلبه، ونهاية الأرب أي منتهى الأماني. ونهاية الأرب تحيل أيضا إلى أن صاحبها قد جمع زبدة التراث العربي الإسلامي الذي انحدر إلى جيله عبر القرون وقدمه لمن يبحث عنه ويبتغيه وفق ترتيب عجيب وتنظيم محكَم.

وهذا العنوان يشبه عنوان كتاب (الكامل في اللغة والأدب) لأبي العباس المبرّد من حيث الدلالة العامة، فقد أشار صاحبه من خلاله إلى أنه سيجمع في كتابه كلَّ ما له صلة بالأدب فلا يحتاج القارئ بعده إلى البحث في مصدر آخر، وكذلك كان النويري واثقا من أنه قد ضمّن كتابه خلاصة ما تركه السابقون، مجموعا في مكان واحد، ومنسّقا ومنظَّما، ومبوَّبا، لكن اللافت في عنوان كتاب النويري نوع من التفرد والتميز فكلمة الكامل الواردة في عنوان كتاب المبرّد تتكرر كثيرا في عناوين المؤلفات العربية مثل كتاب (الكامل في التاريخ) لابن الأثير، وكتاب (الكامل في النحو والصرف) لأحمد قبش وغيرهما، أما عنوان النويري فهو متفرد وخاص - كما أسلفنا - بصاحبه فقط، فكلما ذكر هذا العنوان يخطر على الذهن مؤلفه مباشرة، وهذا من ذوقه العالي وحسن اختياره.

أما عبارة (فنون الأدب) فإنها تشعر القارئ - لأول وهلة - أن مضمون الكتاب أدب خالص، لا يتعدى الشعر والنثر الفني، لكنه في الحقيقة موسوعة جمع فيها صاحبها - إلى جانب الأدب بشعره ونثره - أنواعا كثيرة من العلوم والفنون التي ازدهرت في كنف الحضارة الإسلامية طوال القرون السابقة بما في ذلك التفسير، والحديث، وعلوم اللغة، والأدب، والتاريخ، والجغرافيا، والاقتصاد، والاجتماع، ونظم الحكم، والتراجم، والنبات، والحيوان. وزيّن مختاراته بألوان من: "الحكم، والأمثال، والمجون، والغناء، والموسيقى، ومجالس الخمر، وأسماء الشراب، والزهد في الدنيا، والأدعية الدينية، ونظام الحكومة، ونظام الوزارة، والجيش وأنواع السلاح، والغزو بطريق البحر، والغزو بطريق البر، وعن القضاء وشروط القاضي، وعن ولاية المظالم، ونظام الحسبة، وعن التجارة والتموين، والزندقة ومن اشتهر بها..." (حمزة، 1962، صفحة 23) ، ومزج ذلك كله ببراعة مشهودة.

ويبدو أن النويري كان يقصد بفنون الأدب المعنى العام للأدب. فقد كان مصطلح (الأدب) في صدر الإسلام يحيل في معناه العام إلى رياضة النفس بالتعليم والتمرين على ما يُستحسَن من السيرة والأخلاق، واكتساب الخصال الحميدة واصطناع السيرة الكريمة، ثم تطور مفهومه خلال القرن الأول الهجري ليشمل التعليم، فكان كل من يمارس التعليم ويتكسَّب منه يسمى (مؤدِّبًا). وعندما ظهرت علوم اللغة العربية خلال القرن الثاني الهجري اتسع مدلول الأدب ليشمل الكلام الجيّد من المنظوم والمنثور، وما يتصل به من الشرح والنقد والأخبار والأنساب وغيرها (ضيف، 1960، الصفحات 8-9).

وبذلك أصبح للأدب معنيان: عام وخاص. فالأدب بمعناه الخاص "هو الأدب الفني الذي يجد القارئ أو السامع في نفسه لذة ومتعة لقراءته أو سماعه، فيتلذّذ به ويطرب له. والأدب بمعناه العام هو الإنتاج العقلي الذي يصدر في الكلام ويكتب في الكتب... فالكتاب في النحو أو في الطبيعة أو في الرياضة أدب بالمعنى العام لأنه كلام يصوّر ما أنتجه العقل الإنساني من أنواع المعرفة" (الندوي، 1987، صفحة 69).

وقد عنون النويري كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) قاصدا المعنى العام للأدب، وهو المعنى الذي انتهى إليه مصطلح الأدب في عصره، حيث أصبح يُطلَق على جميع المعارف الدينية وغير الدينية، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: "الأدب هو الأخذ من كل فنّ بطرف" (بن خلدون، 1981، صفحة 553)، ويرادف في عصرنا الحاضر مصطلح الثقافة، ونلمح مصداق ذلك في محتويات الكتاب الذي يتناول "الإنسان وعلاقته بما يحيط به من مظاهر الطبيعة، وما يتصل به من حيوان ونبات وجماد، وكيف ينظر الإنسان إلى هذه المظاهر والأشياء، وما انطباعاته حيالها، وموقفه إزاءها، بل وموقفها إزاءه وتأثيرها عليه". وقد أشار المؤلف إلى ذلك في قوله: "وبعد، فمن أولى ما تدبجت به الطروس والدفاتر، ونطقت به ألسنة الأقلام عن أفواه المحابر... وجعله الكاتب ذريعة يتوصَّل بها إلى بلوغ مقاصده، ومحجَّةً لا يضلُّ سالكُها في مصادره وموارده: فنُّ الأدب الذي ما حلَّ الكاتب بِوَادِيهِ إلاَّ عمرت بَوَادِيه، ولا ورد مشارعه إلاَّ واستعذب شرائعه، ولا نزل بساحته إلاَّ واتّسعت له رحابها... وما أوردتُ فيه إلا ما غلب على ظني أن النفوس تميل إليه وأن الخواطر تشتمل عليه، ولقد تتبّعتُ فيه آثار الفضلاء قبلي، وسلكتُ منهجهم فوصلتُ بحبلهم حبلي" (النويري، 2004، صفحة 2).

وقد وُفِّق النويري في اختيار عنوان كتابه إلى أبعد حدّ بدليل أنه ظلّ - منذ تأليفه - علامة بارزة عليه بحيث لا يختلط على أحد نسبته إلى صاحبه بسبب حسن اختياره لكلماته، فضمن له الخلود والتميّز كما هي الحال بالنسبة لبعض مصادر التراث المشهورة التي لا يختلف اثنان في مكانتها الخاصة وقيمتها ... أمثال (البيان والتبيين) للجاحظ، و(نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب)، و(الذخيرة في محاسن الجزيرة) وغيرها.

ثانيا_المضامين الكبرى للكتاب وطابعها الموسوعي

يكاد الباحثون والدارسون يجمعون على أن كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) من أوائل وأكبر الموسوعات التي ظهرت في العصر المملوكي، فهو - بحق - دائرة معارف شملت جميع العلوم والفنون الرائجة حتى ذلك العصر. وقد استغرق المؤلف في تدوينها عشرين عاماً.

والكتاب يقع في ثلاثين مجلدا ضخما، افتتحه المؤلف بمقدمة، وقسمه إلى خمسة فنون رئيسة. **الفن الأول** في السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية، ويشتمل هذا الفن على خمسة أقسام هي كالتالي: القسم الأول: في السماء وما فيها، ويتضمن خمسة أبواب، القسم الثاني: في الآثار العلوية، وفيه أربعة أبواب، القسم الثالث: في الليالي والأيام والشهور والأعوام والفصول والمواسم والأعياد، وفيه أربعة أبواب، القسم الرابع: في الأرض والجبال والبحار والجزائر والأنهار والعيون، وفيه

سبعة أبواب، القسم الخامس: في طبائع البلاد وأخلاق سكانها وخصائصها والمباني القديمة والمعاقل والقصور والمنازل، وفيه خمسة أبواب.

أما **الفن الثاني** فخصصه المؤلف للإنسان وما يتعلّق به، ويشتمل هذا الفن على خمسة أقسام أيضا هي: القسم الأول في اشتقاق الإنسان وتسميته وتنقلاته وطبائعه ووصف أعضائه وتشبيهها، والغزل والنسيب والمحبة والعشق والهوى، والأنساب، وفيه أربعة أبواب. والقسم الثاني في الأمثال المشهورة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم، وعن جماعة من الصحابة، والمشهور من أمثال العرب وأوابد العرب، وأخبار الكَهَنَة، والزجر والفأل والطّيرة، والفراسة والذكاء، والكنايات والتعريض والأحاجي والألغاز، وفيه خمسة أبواب.

وأما **الفن الثالث** في الحيوان الصامت. وينقسم بدوره إلى خمسة أقسام كالتالي: القسم الأول في السباع وما يتصل بها من جنسها، والقسم الثاني في الوحوش والظباء وما يتصل بها من جنسها، والقسم الثالث في الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم، والقسم الرابع في ذوات السموم القواتل، والقسم الخامس في الطير والسمك، وآلات صيد البرّ والبحر.

وخصص المؤلف **الفن الرابع** للنبات وتشتمل أقسامه الخمسة على ما يلي: القسم الأول في أصل النبات وما تختص به أرض دون أرض وفيه ثلاثة أبواب، والقسم الثاني في الأشجار وفيه ثلاثة أبواب أيضا، والقسم الثالث في الفواكه المشمومة وفيه بابان، والقسم الرابع في الرياض والأزهار وفيه أربعة أبواب، والقسم الخامس في أصناف الطيب والبخورات، والغوالي والنّدود والمستقطرات والأدهان والنضوحات وأدوية الباه والخواص، وفيه أحد عشر بابا.

وختم الكتاب **بالفن الخامس** (التاريخ) الذي تضمن خمسة أقسام بالترتيب التالي: القسم الأول في مبدأ خلق آدم عليه السلام وحواء وأخبارهما، ومَن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرسّ، وفيه ثمانية أبواب، والقسم الثاني في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام وخبره مع نمرود بن كنعان، وقصة لوط، وخبر إسحاق ويعقوب، وقصة يوسف وأيوب وذي الكفل وشعيب عليهم السلام، والقسم الثالث يشتمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام وخبره مع فرعون، وخبر يوشع ومَن بعده وحزقيل وإلياس واليسع وأشمويل وطالوت وجالوت، وداود وسليمان وأشعيا وأرميا وخراب بيت المقدس وعمارتها وما يتصل بذلك من خبر عزير، وقصة يونس بن متّى، وزكريا ويحي وعمران، ومريم وعيسى عليهما السلام، وقصص الحواريين وما كان من أمرهم فيمن أرسلوا إليه وخبر جرجيس، وفيه ستة أبواب. والقسم الرابع في أخبار ملوك الأصقاع وملوك الأمم والطوائف وخبر سيل العرم ووقائع العرب في الجاهلية وفيه خمسة أبواب. والقسم الخامس في أخبار الملة الإسلامية وذكر شيء من سيرة نبيّنا محمد صلى اللّه عليه وسلم، وأخبار الخلفاء من بعده رضي اللّه عنهم، وأخبار الدولة الأموية والعباسية والعلوية ودول ملوك الإسلام وأخبارهم وما فتح اللّه سبحانه وتعالى عليهم. وفيه اثنا عشر بابا.

وقد استحوذ هذا الفن الأخير على ثلاثة أخماس أجزاء الكتاب واستغرق تسعة عشر جزءًا من ثلاثين جزءًا؛ لأن التاريخ عنده هو منجم الخبرة الإنسانية "إنّ التاريخ مما يحتاج إليه الملك والوزير، والقائد والأمير، والكاتب والمشير، والغنيّ والفقير، والبادي والحاضر، والمقيم والمسافر... فقد تبيّن

بهذه المقدمة تعويل الأمر عليه، وميل المرء إليه" (النويري، 2004، الصفحات 1-2). وقد اجتهد في استقصاء حوادثه، وتسجيل وقائعه، وأبدع في تنظيمها وترتيبها، وبرزت فيه براعته التاريخية وقدرته على الرصد والتحليل، حتى عده بعضهم رأس المدرسة التاريخية المصرية في العصر المملوكي، وغلب الطابع التاريخي على الكتاب لدرجة أنه كاد يكون قوام هذه الموسوعة، وغطى - في كثير من الأحيان - على عنوانه الأصلي حيث وصفه بعض معاصريه ومن جاء بعدهم من المترجمين بـ(تاريخ النويري) لأنهم لاحظوا أن المادة التاريخية هي لب الكتاب وعموده، ومنهم ابن حجر العسقلاني الذي كتب في ترجمته "جمع تاريخا حافلا بخطه وباعه بألفي درهم وهو في ثلاثين مجلدة" (بن حجر العسقلاني، 1972، صفحة 197).

وقد خص تاريخ مصر بأربعة مجلدات ضمّنها تاريخ الدولة الفاطمية، فالأيوبية، ثم تاريخ الشام والصليبيين، ثم تاريخ الدولة المملوكية حتى وفاته، وأبرز ما يميّز هذا الجانب من تاريخه أنه كان شاهد عيان على أحداثه، بل ومشاركا في بعض منها، وقادرا على قراءة الأحداث قراءة صحيحة بالنظر إلى المناصب الحكومية التي كان يشغلها بما يتيح له الاطلاع على أسرار الدولة وخفاياها، وبدايات الوقائع ومآلاتها "من هنا يتجلّى أن النويري لم يكن ملمّا بالعلوم والفنون الرائجة في عصره فحسب، بل كان يمتاز ببلوغ النظر فيها وسبر غورها والتعمّق فيها أيضا، بوصفه فاحصا ومدقّقًا ومميزا خبيرا" (الندوي، 1987، صفحة 35).

ثالثا_منهجه في الكتاب والتأليف

سلك النويري في كتابه منهجا مستقيما وخطة منسقة منظمة تدل على سعة علمه وحسن تنسيق ذهنه ووفرة عقله، حيث قسمه إلى خمسة فنون، يحتوي كل فن على خمسة أقسام، وينقسم كل قسم إلى أربعة أو خمسة أو سبعة أبواب بحسب أهمية وسعة القسم، وضمنها جميع العلوم والفنون التي كانت معروفة في عصره، واستطاع أن يمزج بين العلوم والآداب مزجا قويّا (حمزة، 1962، صفحة 22)، بحيث يجمع ببراعة بين الفائدة العلمية والمتعة الأدبية، وهو ما يمكن أن نطلق عليه في عصرنا الحاضر (تبسيط العلوم)، والذي يعني في جملة ما يعني أن تكون المعلومات العلمية مسلية وتشويقية بعيدة عن الخطاب التقريري الجاف، فإدخال العامل الأدبي في الكتابة العلمية يجعلها أشبه بقصة سردية، والإنسان كائن يحب الحكايات، وقد تفطن النويري لهذا الأمر وضرب فيه بسهم وافر.

وقد كان مدركا لأبعاد خطته حيث كان ينوي أن يضع للكتاب خطة حسنة الترتيب، بيّنة التقسيم والتبويب كما أثبت ذلك في مقدمته "فاستخرت اللّه سبحانه وتعالى، وأثبتُّ منها خمسة فنون، حسنة الترتيب، بيِّنة التقسيم والتبويب" (النويري، 2004، صفحة 5). وكان يهدف إلى أن يجعله موسوعيا شاملا لأصول المعرفة الإنسانية وفنونها، فقسمه تقسيما واضحا بسيطا ومحددا، حتى لا يختلط الأمر على القارئ وتتشعَّب به السبل، ويغرق في التقسيمات الفلسفية للعلوم، والتصنيفات المعقدة للمعارف، فحدّد لكتابه خمسة فنون، حاول أن يستوفي في كل فنّ كل ما يتعلق به من المعلومات التي جمعها، حتى إذا انتهى منها انتقل إلى الفن الذي يليه بحيث يستفيد القارئ من محتوى الكتاب، وتبقى الفوائد المستقاة منه مرتبة في ذهنه، غير مشوبة بالفوضى والتفاصيل الجانبية.

فإذا أحسّ أنه قد خرج قليلا عن الموضوع الرئيس للفنّ الذي يتناوله نبَّهَ إلى ذلك، وبرّر أن هذا الاستطراد إنما هو لزيادة الفائدة وإتحاف القارئ بمزيد من المعارف، وتبعا لحرصه على بقاء خطته سليمة فإنه يعمد إلى إنشاء ذيل خارج عن التقسيم العام للكتاب، ويلحقه بآخر القسم الذي أضاف إليه هذه المعلومات الزائدة. ومن أمثلة ذلك ما ذيَّل به القسم الثالث الخاص بفن التاريخ الذي سرد فيه قصة موسى عليه السلام وقال عنه: "وذيَّلتُ على هذا القسم ذيلا يشتمل على أبواب أربعة، ذكرتُ فيها ما قيل في الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض، وأخبار المهدي والدجال... وما يكون بعده، وشيئا من أخبار الحشر والمعاد. وإنما ذكرتُ هذا الذيل في هذا الموضع - وإن كان غير داخلٍ في فن التاريخ - لأن النفوس لما كانت مائلة إلى الاطلاع على أخبار ما مضى من الزمان، فميلها إلى الاطلاع على ما يظهر في مستقبل الزمان أكثر، وتشوّقها إليه أوفر" (النويري، 2004، صفحة 8).

كما حرص النويري على تجنُّب الحشو والتكرار، وكان ينبّه قارئه في كل مرة يتكرر فيها ذكر موضوع سبق التطرق إليه إلى أنه قد أورد معلومات ضافية عنه، مرشدا إياه إلى الموضع الذي ذكره فيه مثل قوله: "وقد ذكرنا صفة بناء البيت المعمور في الباب الثاني من القسم الخامس من الفن الأول من هذا الكتاب في خصائص البلاد، وهو في السفر الأول، فلا حاجة إلى إعادته ها هنا" (النويري، 2004، صفحة 26)، وقوله في موضع آخر: "ومن الكلام الجيّد في وصف الخيل ما أنشأه الشيخ ضياء الدين القرطبي من رسالته التي كتبها إلى الصاحب الوزير شرف الدين الفائزي، وقد تقدم ذكرها في باب الكتاب في الرسائل، فلا فائدة في إعادتها" (النويري، 2004، صفحة 42) ومثل هذه التنبيهات كثيرة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن النويري قد استحدث منهجا جديدا في كتابة التاريخ، فبعد أن كان سابقوه ومعاصروه يسجلون الأحداث التاريخية حسب السنين رأى أن هذا الأسلوب فيه نقص ولا يؤدي الغرض من سرد الوقائع "ولما رأيت غالب من أرّخ في الملة الإسلامية وضع التاريخ على حكم السنين ومساقها، لا الدول واتساقها، علمتُ أن ذلك ربما قطع على المُطالِعِ لذةَ واقعة استحلاها فانقضت أخبار السنة، وانتقل المؤرخ بدخول السنة التي تليها من تلك الوقائع وأخبارها... فلا يرجع المُطَالِع إلى ما كان قد أهمّه إلا بعد مشقة" (النويري، 2004، صفحة 4). فقد كان اهتمامه برغبة القارئ في متابعة الأحداث التاريخية مسلسلة كأنها قصة ممتعة أهم من تسجيل هذه الوقائع كأنها مجرد أحداث منفصلة.

أما البديل الذي رأى أنه أسهل وأنفع وأقرب إلى رغبة القارئ وأكثر إمتاعا له فهو الذي بسطه في قوله: "فاخترت أن أقيم التاريخ دولا، ولا أبغي عن دولة إذا شرعتُ فيها حِوَلا حتى أسردها من أوائلها إلى أواخرها، وأذكر جملا من وقائعها ومآثرها... فإذا انقضت مدتها رجعتُ إلى غيرها فقفَوْتُ أثرها وأوردتُ ما يحتاج إلى إيراده من غير تكرار ولا إكثار" (النويري، 2004، صفحة 5). وبذلك اختار النويري لنفسه منهجا خاصا في تدوين التاريخ وآثر أن يكون قائما على تسجيل وقائعه "بحسب الحكومات والدول، وتلك مزية لم نألفها عند أقرانه على الأقل" (الندوي، 1987، صفحة 40).

وقد أبدع في سرد الوقائع التاريخية وابتعد بها عن السرد الجاف ومزجها مزجا قويا ورائعا بحركة الإنسان ومشاعره بما أورد فيها من أشعار وقصص تبثُّ فيها الحياة، وعُدَّ بذلك "ممثلا لجيل جديد من المؤرخين المسلمين الذين كتبوا في التاريخ الإسلامي العام" (جمال الدين، 1984، صفحة 254)، وحاولوا قدر الاستطاعة تلافي أخطاء السابقين عن طريق تمحيص الروايات التاريخية، وتجنّب الأخبار المتناقضة، وتحرّي الدقة في إيراد الأحداث.

فإذا بحثنا عن المصادر التي اعتمد عليها النويري في تصنيف كتابه الموسوعي فإننا نلاحظ أنه جمع مادته من كمٍّ هائل من المصادر "حتى ظننّا أنّ معظم الكتب العربية التي أُلِّفَت منذ العصور الأولى للتدوين كانت في متناول المصنِّف" (جمال الدين، 1984، صفحة 133)، وأنه استطاع أن يستوعب المكتبة العربية الموجودة في عصره استيعابا يكاد يكون كاملا، وأنه كان ينتقي هذه المصادر بدقة متناهية، فلا يعتمد إلا على الموثوق في صحتها ونزاهتها (جمال الدين، 1984، صفحة 165).

فقد تبيَّن أنه اختصر ولخص في موسوعته حوالي ثلاثين كتابا، واستفاد في جمع مادته من حوالي سبعة وستين كتابا من أمّات كتب التراث لكبار الأدباء والمنشئين والمؤرخين وأصحاب الأنساب والسِّيَر والفلاسفة والحكماء وغيرهم من الأعلام والشخصيات البارزة التي أنجبتها الأمة الإسلامية خلال القرون الثمانية (الندوي، 1987، صفحة 189) التي سبقت عصر المؤلف، عدا المصادر التي أغفل ذكرها لأسباب مختلفة، وكلها من أفضل المصادر وأوفاها. وكان أمينا فحاول قدر الإمكان ذكر هذه المصادر التي استقى منها معلوماته الغزيرة، وبنى على أساسها هيكل موسوعته "وهي متنوعة أشدّ ما يكون التنوّع، تنتمي إلى صنوف من العلوم المختلفة، وضروب من المعارف المتباينة" (الندوي، 1987، صفحة 133).

وللنويري منهجه الخاص في توثيق هذه المصادر. فإذا كانت من المصادر المتعلقة بالقضايا والمسائل الدينية فإنه يكون فيها ناقلا أمينا بحيث يذكر عنوان الكتاب بوضوح، وينعته نعتا كاملا، ويصرّح باسم مؤلفه مع كنيته ولقبه. أما فيما عدا ذلك فإنه يشير إلى بعضها بوضوح بحيث يتبيّن القارئ اسم المؤلف وعنوان الكتاب، بينما يكتفي في بعضها الآخر بإشارة خفيفة إلى درجة يصعب معها الوصول إلى اسم الكاتب أو الكتاب الصحيح "فيضيع الباحث من وقته وجهده شطرا كبيرا في البحث عنهما والتأكّد من صحتهما وتحقيقهما تحقيقا يزيل الشبهة والمماثلة والغموض (الندوي، 1987، صفحة 130)

ومن أمثلة إشاراته الواضحة إلى المصدر الذي نقل عنه قوله: "قال الشريف السيد ضياء الدين أبو السعادات هبة اللّه المعروف بابن الشّجري في أماليه" (النويري، 2004، صفحة 9)، ويقول في موضع آخر: "قال أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب (العقد الفريد) في كتابه..." (النويري، 2004، صفحة 12)، ويقول أيضا: "قال أبو عبيد البكري في كتابه المترجم بـ(المسالك والممالك) ..." (النويري، 2004، صفحة 5) ، فهذه الإشارات وغيرها يصرح فيها النويري باسم الكتاب ومؤلفه بدقة ووضوح.

ومن المواطن التي يلتزم فيها النويري التزاما تاما بذكر المصدر الذي استعان به عندما يعرض للمسائل الخلافية بين فرق المسلمين، فهو حريص على النقل الأمين لكل الآراء بحيادية وموضوعية دون ترجيح رأي على آخر، بحيث لا يتورّط في مسألة اختلافية، فقد كان يعدّ نفسه "جامعا لأشتات المعارف والعلوم، وناقلا لما ورثناه من التراث العلمي والديني والفني، الذي تركه لنا آباؤنا القدماء، والذي من حقه علينا أن نحافظ عليه ونضنّ به، دون إبداء الرأي فيما اتخذوه من مسلك، أو آثروا من مذهب على المذاهب المختلفة الرائجة" (الندوي، 1987، صفحة 124).

وهو أمين أيضا في كل ما ينقله عن الصحابة والعلماء والشخصيات التاريخية البارزة، وفي العلوم التي تتعلق بالأنساب والتاريخ والجغرافيا والحيوان والنبات. كما حرص عند تطرقه لفن (ديوان الإنشاء) على نقل نماذج مختلفة للرسائل الديوانية نقلا أمينا دون تصرف أو تغيير أو تعديل أو تحريف مع التعريف بأصحابها الذين يعدّون من معاصريه ومن المقرَّبين إليه تعريفا وافيا يليق بمكانتهم في قلبه ومقامهم السامي في فن كتابة الرسائل الديوانية. وميزة هذه الرسائل أنها لم ترد إلا عند النويري، فقد نقلها حرفا ولفظا عن أصحابها وأثبتها في كتابه فهو المصدر الوحيد لها.

ومن أمثلة إشاراته إلى المصدر الذي أخذ عنه إشارة خفيفة بحيث يتعيّن على الباحث أن يجتهد وحده ليجد الكتاب قوله: "فكما قال المولى شهاب الدين محمود..."، وقوله: "قال الثعلبي: قال أهل الكتاب..." فهناك أكثر من مؤلف يلقَّب بالثعلبي، وقوله: "وقال العتبي: بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب..."، وقوله: "قال الحليمي: وإذا دعا الإمام رجلا إلى القضاء فينبغي له أن ينظر في حال نفسه..."، وقوله: "هذا مختصر ما ألفه عبد الغني..." (الندوي، 1987، الصفحات 130-133) ، فهذه الأمثلة وغيرها كثير يكتفي فيها النويري بذكر اسم المؤلف أو كنيته دون توضيح ودون ذكر اسم الكتاب المنقول عنه.

أما في نقله للنصوص الأدبية، كالخطب والمقالات، والأشعار لفظا وحرفا فإنه لا يذكر مراجعه ومصادره مطلقا، ولا يمكن التوصّل إليها إلا بعد جهد ومشقة. والظاهرة نفسها تقابلنا في بعض أبواب الكتاب، مثل (ذكر من اشتهر بالمزاح من الصحابة رضوان اللّه عليهم) والذي نقله من كتاب ابن الجوزي (أخبار الظُرَّاف والمتماجنين) ولم يشر إليه، و(وصايا أصحاب السلطان) التي نقلها من كتاب ابن المقفع (الأدب الكبير) ولم يشر إليه أيضا، وذكر ما جاء (في الوزراء وأصحاب الملك) الذي نقله عن كتاب الماوردي (قوانين الوزارة) وأغفل توثيقه كذلك (الندوي، 1987، الصفحات 137-138)، وغيرها كثير.

وعلى الرغم من كثرة المصادر التي استفاد منها النويري إلا أنه كان قادرا على التحكّم في المادة العلمية الوفيرة التي جمعها، وقد ظهرت شخصيته واضحة في براعته في انتقاء ما يتناسب مع خطة كتابه، وذوقه الرفيع في اختيار ما يفيد القارئ ويمتعه في الوقت نفسه، فكان يبدأ أقسام الفنون وأبوابها بمقدمة من تأليفه، ثم يتبعها بالمنثور من الكلام، فيقدم آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، وأقوال الصحابة الكرام إذا كان الموضوع يتطلَّب ذلك، ثم يسرد أقوال العلماء والحكماء ذات الصلة بالموضوع، وعادة ما يبدأ باليونان لأنه يعتقد أنهم منبع العلم والحكمة والعرفان، ثم الهند والفرس؛ "لأن هذه الأمم أقدم الأمم والشعوب علما وحضارة وحكمة ومعرفة" (الندوي، 1987،

صفحة 116)، ثم يبسط أقوال علماء الإسلام ونبغائهم من مفسّرين ومحدِّثين وقضاة وفقهاء، ونحويين ومؤرخين وكُتّاب سِيَر، ورحالة، وجغرافيين وغيرهم من أرباب الفنون والعلوم.

وعندما يرى أنه قد أشبع الموضوع بحثا وأحاط بكل جوانبه يختمه بباقة مختارة من الأشعار التي تناسب المقام للاستشهاد أو التمثيل أو الاستدلال، وقد بلغ عدد الشعراء الذين أورد أشعارهم في فن الحيوان وحده خمسة وسبعين شاعرا مجيدا. وهو حريص على أن يزين كل أقسام كتابه وأبوابه بالمنتقاة من الأشعار، ففي الموضوعات ذات الصلة الوثيقة بالمشاعر والأحاسيس نجده ينتقي مقاطع رائعة من الغزل الرقيق والنسيب الرائق مع التزام العفة، فلم يتضمّن كتابه أية مقاطع شعرية فيها تعريض بامرأة أو غزل حسّي فيها أو قول فاضح. أما الموضوعات الأقرب إلى العلمية فإنه يجتهد في إيجاد ما يليق بها "حتى أنه أتى بشعر جيّد عن السباع والبهائم مثل الأسد والنمر والفهد والسنجاب والثعلب والدب وعن الخيل والبقر والغنم والبغال، وعن الحيّات والعقارب وأجناس الطيور وأنواع الأسماك" (الندوي، 1987، صفحة 117). وللنويري ذائقة خاصة في الشعر، فقد أورد من مختاراته ما يناسب جميع الفنون التي عالجها، وعرض لمعظم الأغراض وأكثر المعاني مما يدلّ على أنه كان محيطا بجميع أنواع الشعر، خبيرا وماهرا فيها، مع القدرة على الانتخاب البديع بحسب الموضوع والمادة "وتلك مزية لا يضاهيه فيها أحد من المؤلفين، فلم يعمد أيٌّ مؤلف إلى نقل الأشعار بحسب المعاني والمطالب كما فعل النويري" (الندوي، 1987، صفحة 47).

وتظهر شخصيته أيضا في نقده البنّاء لما يرى أنه يخالف العقل، أو يصادم ثوابت الدين، ولا يمنعه علوّ مكانة صاحب القول وشهرته من أن يردَّ قوله ويبيّن خطأه، كما في قوله عن أرسطو: "وزعم صاحب المنطق أن بالحبشة حيَّات لها أجنحة" (النويري، 2004، صفحة 137). وتظهر شخصيته كذلك في الإضافات الكثيرة التي كان يثري بها المعلومات المنقولة تدعيما، أو تقييما، أو نقدا والتي اعتمد فيها على المشاهدة والسماع، لكنه كان أمينا مع قارئه، فإذا عرض له موضوع لا يستطيع أن يدلي فيه برأيه، أو يعقّب عليه، أو يضيف إليه شيئا يكتفى بالقول (واللّه أعلم) (جمال الدين، 1984، صفحة 138).

ومن مميزات منهج النويري أيضا أنه لا يؤمن بالخرافات، ولا يستسيغ الأساطير والأوهام التي يجدها مبثوثة في مختلف المصادر التي اطلع عليها، وعندما يوردها في كتابه يوثّق المصدر الذي أخذها منه، وينبّه القارئ إلى أنها من الخرافات والأساطير وإنما جاء بها للتشويق والإثارة ورفع الملل والسآمة عنه، وهي ليست قابلة للتصديق على أي حال. ومن جملة هذه الخرافات والأساطير التي أوردها أنّ بأرض الهند "عين ماء لا تقبل نجسا ولا قذرا، فإذا ألقي فيها شيء من ذلك اكْفَهَرَّت السماء وهبَّت الريح، وكثُر الرعد والبرق والمطر، فلا تزال كذلك إلى أن يُخْرَج منها ما طُرِحَ فيها" (النويري، 2004، صفحة 254)، وفي موضع آخر يقول: "وبأرض كُتامة من بلد إفريقية عين تسمَّى عين الأوقات. تجري في أوقات الصلوات الخمس، فإذا حضر جُنُبٌ أو امرأةٌ حائض لا تَبِضُّ بشيء من الماء، وإذا اتُّهِمَ رجلان أتت بالماء للصادق وشحَّت على الكاذب. وببلد إفريقية أيضا عين تنبُعُ بالمداد، يكتبُ به أهلُ تلك الناحية" (النويري، 2004، صفحة 256).

كما أنه لا يعترف بخوارق الصوفية، بل يستنكر تحقّقها في زمن راج فيه التصوف رواجا كبيرا، وتعددت طرقه، وتأثر به الناس والحكام على السواء، حتى أنه أنكر أشدّ الإنكار على زين الدين عبد الرحمن عبيدان البعلبكي زعمه أنه رأى الحق سبحانه، وشاهد الملكوت، ورأى الفردوس، ورُفِعَ فوق العرش، وسمع الخطاب، واستتابه فتراجع عن قوله وبادر إلى تجديد إسلامه (جمال الدين، 1984، صفحة 93).

وقد تميز أسلوبه في هذه الموسوعة بالجزالة والقوة والفصاحة إلى جانب البساطة والوضوح كأنه السهل الممتنع، كما اتسم منهجه أيضا بالنزعة المنطقية، وبالبعد عن التعقيد، وتجنّب الإغراق في التخصص العلمي والمصطلحات التي لا يعرفها إلا أهل العلم، ليكون في متناول القراء الذين يبحثون عن العلم النافع والمتعة الأدبية في الوقت نفسه.

رابعا_قيمة الكتاب التاريخية والأدبية

يمثل كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) مرحلة متميّزة من مراحل التاريخ الثقافي الإسلامي، فقد جاءت عقب سقوط بغداد عاصمة الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف، على إثر وقوعها في أيدي التتار الذين أحالوها خرابا، وتركوا أرضها بعد غزوهم لها يبابا، وظنّ الجميع أن الأمة قد هوت إلى الحضيض بعد هذه النكسة المريعة. يقول ابن الأثير: "لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم إليها رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك. هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق اللّه - سبحانه وتعالى - آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها، ولا ما يدانيها" (بن الأثير، 2003، صفحة 358)، لكنها ما لبثت أن انتعشت في مصر والشام واستأنفت مسيرة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية جديدة أكثر شبابا وأرقى حضارة حتى وصفها بعض الدارسين بأنها مرحلة الإحياء.

وكان النويري واحدا من رواد هذه المرحلة التي أثبت من خلالها أن الثقافة العربية الإسلامية تعيش دورا جديدا من أدوارها الحضارية بكل ألقه وعطائه من خلال كتابه الموسوعي الذي ضمّنه - كما أسلفنا - ثروة معرفية غزيرة جمع فيها ما انحدر إليه من التراث الممتد إلى ثمانية قرون، وزاد عليه ما أنتجه عصره من علوم وآداب، فكان ثمرة لثقافة عربية إسلامية بلغت درجة عالية من التطور والتراكم والتنوع في العصر المملوكي.

وتكمن قيمة الكتاب في أنه من أوائل الموسوعات الناضجة التي ظهرت خلال العصر المملوكي، حيث كان صاحبها سباقا إلى هذا النوع من التأليف الجامع لمختلف العلوم والفنون بأسلوب جديد ومنهجية مضبوطة وخطة مدروسة، فقد شهد له الباحثون والدارسون أنه قام وحده بعمل جليل يتطلب إنجازه بهذا الإتقان والتنظيم جماعة من الخبراء من أولي العزم والثبات، وذوي العلم والعرفان، واسعي الأفق، كثيري الاطلاع والمعرفة، واستطاع فيه أن يورد العلم في معرض الأدب، وأن يعرض الأدب في إطار العلم في توليفة بديعة.

ومن أجلّ الخدمات التي قدمها النويري للتراث العربي الإسلامي وللمعرفة الإنسانية ما تضمّنه كتابه من فصول نقلها عن كتب ضاعت فيما ضاع من تراثنا، حيث اعتمد في بعض أجزاء كتابه على مصادر فريدة في بابها لا تزال مفقودة إلى الآن على الرغم من الجهود الكثيرة المبذولة لحصر المخطوطات العربية الموزعة على مكتبات العالم، ومنها كتاب (الأمصار) للجاحظ الذي نقل عنه النويري في الجزء الثاني من كتابه، وكتاب (جيب العروس وريحان النفوس) لمحمد بن أحمد التميمي المقدسي الذي نقل عنه النويري وهو يرصد أنواع الطيب والبخورات والندود والمستقطرات والنضوحات والأدهان في الأبواب التسعة من الجزء الثاني، وكتاب (مختصر المكاتبات البديعة فيما يكتب من أمور الشريعة) لأبي عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن المخزومي المعروف بابن الصيرفي، والذي قدم له ملخصا وافيا في الجزء التاسع من كتابه (جمال الدين، 1984، صفحة 159).

وقد عرف المستشرقون منذ بداية النهضة الأوروبية للكتاب قيمته واكتشفوا أنه يتضمّن ثروة معرفية لا تقدَّر بثمن، فقد "امتد الاهتمام بكتاب النويري إلى المستشرقين الأوروبيين الذين هالهم منذ فجر النهضة الأوروبية الكمّ الوافر من المعلومات والأخبار والروايات، كما أثار دهشتهم وإعجابهم تنوّع مادته العلمية التي ظلت مصدرا رئيسيا لهم في أكثر الفنون والآداب حتى نهاية القرن التاسع عشر" (جمال الدين، 1984، صفحة 2).

ومنهم المستشرق الروسي أليكساندر فازيليف Aleksandar Vasilev الذي وجد في الكتاب شهادات تاريخية لا توجد في غيره، فقال: "إن (نهاية الأرَب) على الرغم من تأخر عصره، يحوي أخباراً خطيرة عن صَقِلِّيَّة، نقلها عن مؤرخين قدماء، لم تصل إلينا كتبهم؛ مثل ابن الرقيق، وابن رشيق، وابن شداد، وغيرهم" (الزركلي، 1979، صفحة 165).

ومنهم أيضا المستشرق الألماني كارل بروكلمان Carl Brockelmann الذي عثر في الكتاب على رسالة لعبد الملك بن مروان وجهها إلى الحسن البصري، وقال عنها إنها رسالة نادرة وربما لا توجد في كتاب آخر غير نهاية الأرب، وأن الكتاب قد تضمّن - إلى جانب ذلك - أخبارا نادرة لا توجد في غيره من المصادر عن بعض الأدباء في العصر الأموي، مثل أخبار الشاعر عديّ بن الرقاع العاملي الذي كان نديما للوليد بن عبد الملك بن مروان، وأشعارا لم تكن معروفة ليزيد بن معاوية باعتباره أول شاعر في بيت الخلافة الأموي (بروكلمان، 1977، صفحة 242).

أما المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy فقد وجد في كتاب النويري معلومات تاريخية مهمة عن تاريخ القرامطة والإسماعيلية نقلها النويري عن كتاب لكاتب يسمى الشريف أخي محسن في حكم المفقود، ومعلومات أخرى عن ترتيب الدعوة والدعاة عند الفاطميين لفتت نظره لأهميتها البالغة نقلها المؤلف عن مصادر صارت هي أيضا في حكم المفقودة، فترجمها إلى الفرنسية، واعتمد عليها في إنجاز دراسة بعنوان (بحث عن عقيدة الدروز)، كما ترجمها المستشرق بول كازانوفا Paul Casanova أيضا واستفاد منها في إعداد بحثه الموسوم بـ(المذهب السري للفاطميين بمصر)، واستعان المستشرق الهولندي دي غويه Michael Jan de Goeje كذلك بهذه

المعلومات التاريخية عند تأليف كتابه (مذكرات عن قرامطة البحرين والفاطميين) (جمال الدين، 1984، صفحة 118).

ونوّه المستشرق الروسي تايزنهاوزن Tiesenhausen بما ورد في كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) من معلومات تاريخية في غاية الأهمية تخص القبيلة المغولية الأوردو الذهبي التي أنشأها أحد أبناء جنكيزخان في روسيا والقوقاز ثم دخلت الإسلام وكانت لها علاقات دبلوماسية متينة مع المماليك (جمال الدين، 1984، الصفحات 118-119). وتستمد هذه المعلومات أهميتها من معاصرة النويري لهذه الأحداث واستقائه لها من مصادرها القريبة ساعة وقوعها كونه شاهدا على أحداث عصره، خبيرا بما كان يجري حوله باعتبار المناصب الحكومية العالية التي كان يشغلها. والأمر نفسه ينطبق على تاريخ إفريقيا والأندلس وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط. يقول المستشرق الروسي كراتشكوفسكي KRACHKOVSKY إن (نهاية الأرب) سيظل دائما "مصدرا ذا أهمية كبرى بالنسبة للفترة التاريخية القريبة من عهد المؤلف سواء كان ذلك عن شمال إفريقيا والأندلس وصقلية أم عن أقطار مثل الأورد الذهبي" (كراتشكوفسكي، 2000، صفحة 409).

ولم يقتصر اهتمام المستشرقين بالقيمة الأدبية والتاريخية لنهاية الأرب بل تعداه إلى المادة العلمية الخاصة بالنبات والأدوية والأعشاب، حيث أشار كراتشكوفسكي KRACHKOVSKY إلى أن الفصول "التي تبحث في العطور والأدوية والنباتات بوجه عام يبيّن أن الكتاب لا يخلو من مادة قيّمة تهمّ الجغرافي كما تهمّ عالِم النبات ومؤرخ الحضارة" (كراتشكوفسكي، 2000، صفحة 409).

ومن مميّزات الكتاب وخصائصه التي انفرد بها أنّ النويري قد أبدع في منهجه في التأريخ للوقائع والأحداث، ولم يسر على خطى مَن سبقه مِن المؤرخين المسلمين الذين اتبعوا طريقة تسجيل الحوادث بالسنوات، فتفادى بذلك كثيرا من الأخطاء. وقد أشاد المستشرقون بهذه المنهجية، لأنهم يسمّون الطريقة القديمة (صنعة الفسيفساء) لانفصال أجزائها عن بعضها بسبب كتابتها على نظام السنوات (حمزة ...، 2016، صفحة 296)، مما يعيق المؤرخ عن قراءة الحوادث التاريخية قراءة صحيحة، ويقف عائقا أمام تفسيرها وفلسفة وقائعها، وبهذا يكون النويري قد مهّد لنظرية ابن خلدون في تفسير التاريخ قبل نصف قرن من ظهوره.

ومن أفضال النويري على الثقافة العربية أيضا ما بذله من جهود حميدة في تسجيل كل ما يتعلق بتاريخ الدواوين في الدولة الإسلامية، مما أسهم في تطوير صنعة الديوان والارتقاء بهذا العلم؛ فقد وضع خلاصة خبرته، وعصارة تجربته بين أيدي القراء، وأتحف العربية أيضا بمجموعة ممتازة من الرسائل الأدبية التي قرأها لكتّاب عصره أو سمعها منهم مباشرة، والتي يعدّ (نهاية الأرب) المصدر الرئيس والوحيد لها.

وخلاصة القول إنَّ كتاب النويري (نهاية الأرب في فنون الأدب) كان له الفضل في إنضاج الكتابة الموسوعية، فقد استطاع المؤلف بسعة اطلاعه وبراعته في الترتيب والتنظيم أن يتلافى ما وقع فيه مَن سبقوه من الفوضى والاضطراب وخلط المعلومات، وأن يستفيد استفادة كبيرة من مهنته الحكومية في ديوان الإنشاء الذي كان يتطلب من أصحابه أن يكونوا في أعلى درجات الإتقان في الكتابة "قدّمنا

ذكر كُتّاب الإنشاء لما هم بصدده من الصَّدارة والوجاهة، والنّبالة والنباهة، والفصاحة والصَّباحَة، والنزاهة والسماحة، والأمانة والديانة... ولِما تصدَّوا له من كتم أسرار الدُّول، وتحلَّوا به من صفات الأفاضل والأكارم، إلى غير ذلك من مناقبهم الجمّة" (النويري، 2004، صفحة 191).

وقد أشار كراتشكوفسكي إلى هذه الميزة، وعزا الترتيب الجيد للكتاب إلى امتلاك صاحبه لناصية الكتابة بسبب مهنته في ديوان الإنشاء "وهو ترتيب يعكس بوضوح تام أثر التدريب الصارم في الشؤون الكتابية" (كراتشكوفسكي، 2000، صفحة 406)، فكان كتابه نموذجا احتذاه مَن جاء بعده مثل ابن فضل اللّه العمري في كتابه الجامع (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، والقلقشندي في كتابه الموسوعي (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)، وغيرهما، فكلهم - كما يقول كراتشكوفسكي - من موظفي الحكومة المملوكية، ويبقى كتاب النويري "أشمل وأكمل وأكثر إلماما بالمعارف الإنسانية المعروفة في زمانه" (حمزة ع.، 1962، صفحة 26) من باقي الكتب الموسوعية التي سبقته وعاصرته.

وبناءً عليه، فإنّه يحقّ لنا أن نقول إنَّ كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) يقوم دليلا قويًّا على أن الثقافة العربية الإسلامية كان لها فضل السبق في الربط بين أنساق معرفية مختلفة، ومحاولة صهرها في بنية ثقافية مكتملة، وذلك قبل أن يتجه كُتّاب الغرب ودارسوه في عصر النهضة الأوروبية إلى مثل هذه الأعمال الموسوعية التي تحاول أن تجمع شتات معارف متفرقة (بشير، د.ت)؛ لذلك اعتنى الغربيون بهذا الكتاب وحرصوا على ترجمته إلى مختلف اللغات الأوروبية.

خاتمة ونتائج الدراسة

نخلص في ختام هذا البحث إلى أن العصر المملوكي قد شهد نهضة فكرية وعلمية وأدبية بدت كأنها استئناف جديد لدورة حضارية عربية إسلامية بعد سقوط بغداد على أيدي التتار، وأن هذه الحركة الثقافية النشيطة قد حافظت على التراث الغنيّ الذي خلفه أسلافنا طيلة ثمانية قرون وزادت عليه ما جادت به قرائح العلماء المسلمين الذين أظلتهم الإمبراطورية المملوكية الفتية وجمعت أشتاتهم من مختلف الأصقاع، وهيّأت لهم بيئة علمية خصبة بما تميّز به سلاطينها من توقير الإسلام وحب العلم وإكرام العلماء. وكتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) ثمرة يانعة من ثمرات هذه الحقبة المتميزة التي ظلمها كثير من الدارسين والباحثين ووصموها بالتخلف والعقم الثقافي، وشاهد واضح على أن الكتابة الموسوعية التي بدأت بسيطة في القرن الثالث الهجري ثم تطورت بعده إنما بلغت أوج نضجها واستوائها على يد النويري الذي كان أول القطر ثم تبعه سيل الموسوعات الأخرى. وقد توصلنا في نهاية البحث إلى جملة من النتائج نرصد أهمها فيما يلي:

1 - إن أبرز ما ميّز النشاط العلمي والثقافي في العصر المملوكي هو الميل إلى الكتابة الموسوعية التي اختلف الدارسون في أسباب ظهورها وازدهارها في هذا العصر، حيث رأى بعضهم أنها كانت محاولة مستميتة للمحافظة على كنوز التراث بعد ضياع آلاف المصنفات والمصادر إثر سقوط بغداد، بينما رأى بعضهم الآخر أنها تطور طبيعي للثقافة العربية الإسلامية التي بلغت في هذا العصر

درجة عالية من الاكتمال والتراكم الذي حتّم جمعها وترتيبها واختصار أمّات المصادر فيها بطريقة منهجية.

2 ـ إن كتاب النويري (نهاية الأرب في فنون الأدب) يعدّ من أوائل وأكبر الموسوعات التي ظهرت في العصر المملوكي، وأنها تميّزت بخطتها المحكمة، وتنظيمها المنسّق، وغزارة المعلومات العلمية والأدبية والتاريخية التي تضمّنتها، ولغتها الراقية على الرغم مما يشوبها من كثرة المحسنات البديعية التي كانت سمة العصر، وإن صاحبها قد استغرق في تدوينها عشرين عاماً.

3 ـ إن الكتاب يقع في ثلاثين مجلدا ضخما، افتتحه المؤلف بمقدمة، وقسمه إلى خمسة فنون رئيسة، وقد استحوذ الفن الخامس والأخير وهو فن التاريخ على ثلاثة أخماس أجزاء الكتاب واستغرق تسعة عشر جزءًا من ثلاثين جزءًا.

4 ـ إنّ النويري سلك في كتابه منهجا مستقيما، وخطة منسقة منظمة تدل على سعة علمه، وحسن تنسيق ذهنه، ووفرة عقله، وضمنها جميع العلوم والفنون التي كانت معروفة في عصره، واستطاع أن يمزج بين العلوم والآداب مزجا قويّا، بحيث جمع ببراعة بين الفائدة العلمية والمتعة الأدبية.

5 ـ إنَّ كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) يكتسي قيمة أدبية وتاريخية وعلمية كبيرة بشهادة الباحثين والدارسين الذين يعدّونه منجما للتراث العربي الإسلامي بمختلف علومه وفنونه، وبشهادة المستشرقين الذين وجدوا فيه ثروة تاريخية وعلمية فريدة فسارعوا إلى ترجمة محتوياته والاستناد إليها في إنجاز بحوثهم.

6 ـ إن (نهاية الأرب في فنون الأدب) مصدر مهم جدا لبعض الأحداث التي عاشها المؤلف قد لا توجد في مصادر أخرى بتلك الدقة والمصداقية، كما هو الحال في وصفه للعلاقات الدبلوماسية بين المماليك والمغول، أو في توثيقه لما كان يجري في قصور السلاطين من المشاورات، وظروف اتخاذ القرارات الحاسمة وما كانوا يتعرضون له من المؤامرات وغيرها. فهو وثيقة تاريخية مهمة تعكس عصره بامتياز.

7 ـ إن هذا الكتاب الموسوعي على الرغم من قيمته العالية لا يزال بحاجة ماسة إلى دراسات وأبحاث أكاديمية جادة تستكشف ما يحتويه من كنوز التراث، فما كتب حوله قليل مقارنة بما يتضمنه من معارف، وما يحتوي عليه من علوم.

قائمة المصادر والمراجع

1. بروكلمان، كارل. (1977). تاريخ الأدب العربي. ج 1. (عبد الحليم النجار، و آخرون، المحررون) القاهرة: دار المعارف.
2. بشير، شحادة. (د.ت). تم الاسترداد من شهاب الدين النويري عالم بحاث غزير الاطلاع ذكي الفطرة: https://wefaq.net/c/guide/1406
3. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد. (2003). الكامل في التاريخ. ج12 (الإصدار 4). بيروت: دار الكتب العلمية.
4. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي. (1972). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (الإصدار 2). حيدر آباد. الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية.
5. ابن خلدون، عبد الرحمن. (1981). المقدمة (الإصدار 4). بيروت: دار القلم.
6. جمال الدين، أمينة محمد. (1984). النويري وكتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، مصادره الأدبية وآراؤه النقدية. القاهرة: دار ثابت للنشر والتوزيع.
7. الجزار، محمد فكري. (1998). العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
8. حمزة، عبد اللطيف. (1962). القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى) عرض وتحليل. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
9. حمزة، عبد اللطيف. (2016). الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
10. زكي، محمود. (2007). العنوان الصحيح للكتاب (عرض). مجلة تراثيات(10).
11. الزركلي، خير الدين. (1979). الأعلام. ج 1. بيروت: دار العلم للملايين.
12. ضيف، شوقي. (1960). تاريخ الأدب العربي. العصر الجاهلي (الإصدار 11). القاهرة: دار المعارف.
13. كراتشكوفسكي، أغناطيوس. (2000). تاريخ الأدب الجغرافي. ج1. (صلاح الدين عثمان هاشم، المترجمون) القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.
14. الندوي، عبد الحليم. (1987). منهج النويري في كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب) بحث ودراسة مقارنة ونقد (الإصدار 1). دمشق: دار الفكر.
15. النويري، أحمد بن عبد الوهاب. (2004). نهاية الأرب في فنون الأدب. ج1/ ج2/ ج8/ج 10/ ج13. (مفيد قميحة، و آخرون، المحررون) بيروت: دار الكتب العلمية.